المصريين هم أول من ابتدع العلوم الرياضية . بمعناها العملي . ولكنه . مع دقته في تتبع مذاهب القدماء في تراث الفلاسفة الأولين . لا يشير قط الى فلاسفة مصريين أو شرقيين ... الى آخر ما يقوله في هذا الصدد جمهرة المؤرخين من الغربيين .

هكذا قالوا أن اليونان قد أفادوا من تراث الشرق القديم في الفنون و العلوم العملية ، فأعانهم هذا على أن يفرغوا للبحث النظري النزيه في حقيقة الموجودات وماهيتها ، بحثا قوامه التحليل المنطقي و الترابط العلي و البرهان العقلي ؛ ساعدهم على هذا اعترافهم بنظام الرق ، واعتقادهم بأن العبيد وظيفتهم القيام بالعمل اليدوي ، ومهمة السادة أن يتفرغوا للبحث النظري المجرد ، ليس يقول أرسطو أن الأشغال بالعلم يتطلب الفراغ ... ؟ هكذا كانت نشأة الفلسفة بمعناها التقليدي على يدهم .

إذا كان هذا هو الرأي الشائع عند جمهرة الغربيين من مؤرخي الفلسفة ، فإن الشرق لم يعدم منصفين من الغربيين أنفسهم يقولون بغير ذلك ، وحسبنا أن نشهد بثلاثة من أعلام المعاصرين من هؤلاء ، وهم ول ديورنت سيد مؤرخي الحضارات (في أمريكا) وبول ماسون أورسيل أستاذ الفلسفة الشرقية ومدير معهد الدراسات العليا في باريس .

فأما أولهم وهو " ول ديورنت " فيقول في معرض حديثه عن الفلسفة المصرية أن مؤرخي الفلسفة من الغربيين قد جرت عادتهم على أن يردوا نشأة الفلسفة الى اليونان ، وأن الهنود الذين يرون أنهم أبدعوا الفلسفة ، والصينيين الذين يرون أنهم سموا بها حد الكمال ، يسخرون من تعصب الغربيين وضيق تفكيرهم ، ولعل هؤلاء جميعاً مخطئون ، فإن في تراث المصريين كتابات قديمة تتصل بالفلسفة الخلقية من بعيد ، بل أن حكمة مصر القديمة كانت مضرب الأمثال من اليونان الذين اعتقدوا أنهم أطفال الى جانب حكماء هذا الشعب القديم (قارن أفلاطون في محاوره طيماوس) ، بل أن أقدم ما يعرف من المؤلفات الفلسفية تتضمنه " تعاليم بتاح حوتب " وهي ترد الى ثمانية و أربعين قرناً من الزمان (أي قبل عصر كونفوشيوس و سقراط وبوذا بثلاثة وعشرين قرناً) !

بل جاهر " ديورنت " بأن الغربيين الذين يزعمون خطأ أن ثقافة اليونان كانت المعين الوحيد الذي نهل منه العقل الحديث ، ستتولاهم الدهشة إذا عرفوا الى أي حد تدين علوم الغرب و آدابه وفلسفاته و ... لتراث مصر وبلاد الشرق ... الى آخر ما يقوله في هذا الصدد .

أما " سارتون " فيقول في معرض تأريخه للعلاقات العلمية بين الشرق و الغرب : (إن نور العلم قد انبثق من الشرق ، وما من شك في أن معارفنا العلمية القديمة . نحن الغربيين . مهما يكن أمرها فأنها تترد أصلاً الى الشرق و إذا كنا لا نستطيع أن نقول الكثير بصورة محددة عن الأصول الصينية و الهندية التي صدر عنها علم الغرب ، فإننا على العكس نستطيع بيقين و تحديد دقيق أن تتحدر بأصوله الى تراث ما بين النهرين ومصر ...

ويمضي سارتون في الحديث حتى يتصدى لمناقشة عبقرية اليونان العلمية ، ويعرض لما سماه مؤرخو الغرب بالمعجزة اليونانية ويقول أن حديث الغربيين عن المعجزة اليونانية لا يعدو أن يكون اعترافاً بجهلهم بحقيقتها وتسليماً منهم بهذا الجهل ... ويمضي سارتون في حديثه حتى يقول في صراحة : إن العلم اليوناني يقوم كلية على أسس من تراث الشرق ، وبالغة ما بلغت اليونانية من عمق ، فإن من المؤكد أنه ما كان يمكن أن تحقق كشوفاتها العلمية المعجزة بغير هذه الأصول الشرقية ، ومن ثم فليس من حق الغربيين أن يستبعدوا الأب و الأم اللذين نشأت عنهما هذه العبقرية اليونانية ، أما الأب فهو التراث المصري القديم ، وأما الأم فهي ذخيرة بلاد ما بين النهرين .

أما ثالث الأعلام الذين أدت دراساتهم العميقة لتراث الشرق القديم الى أنصافه وتقدير ميراث الغرب منه فهو (ماسون أورسيل) الذي أكد مع من تابعوه في اتجاهه أن البحث العلمي في تراث الشرق القديم والكشف عن كنوزه المخبأة لا يزال حديث عهد ، وقد يكشف المستقبل من آياته ما يغير نظرتنا لتراثه ، وفي تعاون الباحثين من علماء التاريخ و الاجتماع و اللغة والآثار ونحوها على التنقيب عن تراث الشرق ما يبشر بالكشف عن كنوز من النظر العقلي الشامل عن الهند والمصريين والصينيين و الفرس ، وينذر بوضع التراث الشرقي في مكانه اللائق من تراث العقل البشري بوجه عام ، وقد انتهى بعض الباحثين الى أن من الضلال أن تقطع كل صلة تربط اليونان بأساتذتهم في الشرق القديم ، حقيقة لم يعرف لفظ الفلسفة ومدلولها التقليدي إلا عند الإغريق ومن أعقبهم من أهل أوروبا ، جهلته الهند و الصين ومصر وغيرها من بلاد الشرق ،

ولكن من السذاجة اليوم أن يظن أن الفلسفة اليونانية كلها كانت نتيجة محتومة وتطوراً منطقياً للعبرية اليونانية وحدها فيما يقول الأستاذ أميل برييه أستاذ الفلسفة بجامعة باريس .

وتضييق معنى الفلسفة هو الذي حال دون اطلاقها على حكمة الشرق القديم ، ولو اتسع مدلولها حتى شمل الحياة العقلية و الروحية لانحدرنا بنشأتها الى شعوب الشرق القديم ؛ وهذا ما فعله الأستاذ "ماسون أورسيل" الذي يقول أن ليس ثمة اليوم إنسان يعتقد أن اليونان و الرومان وشعوب أوروبا في عصورها الوسطى و الحديثة هم وحدهم أهل التفكير الفلسفي ، فإن في مناطق أخرى من البشرية قد سطعت أنوار التفكير المجرد وتالألات في وضوح ... ولا يطعن في هذا أن يقال أن الحياة العقلية عند الشرقيين كان أوثق اتصالاً بحياتهم الدينية منها بالتفكير الفلسفي الخالص ، فقد امتزج التفكير الفلسفي بالتفكير الديني في شتى عصور الإنسانية حتى ليتمكن القول بأن كل محاولة تهدف الى الفصل التام بينهما ، تنتهي لا محالة الى العجز عن فهم كليهما !

ومرجع الخطأ الى افتراض تقابل بين الشرق و الغرب . أو آسيا و أوربا بتعبير أدق ، وتوحي المصورات الجغرافية بهذا الوهم في أذهان الناس ، مع أن فهم نتاج العقل اليوناني يتطلب وضع تراثه في وسط إنساني واسع ، ويقتضي أن نقيم العلاقات بينه وبين ما سبقه من وجوه النظر العقلي عند حكماء الشرق القديم ، وعندئذ يزول التقابل بين الشرق و الغرب ، ولا يصبح أمامنا إلا تراث نبت في أوراسيا التي تجمع بين أوربا و آسيا في سمط واحد .

أما رد الشعوب الى أجناس تتفاوت بطبيعتها في القدرة على النظر العقلي المجرد و ابداع المذاهب الفلسفية كما ذهب أمثال أرنست رنان ١٨٩٢ و كرستيان لاسن ١٨٧٦ ، فهو من الخواطر التي أملاها التعصب الجنسي أو الديني أو هما معاً ، وقد فند الكثيرون من الباحثين هذا الزعم فلا حاجة بنا الى إطالة الحديث فيه .

أن التفكير الغربي كان دائماً يعيش في محيط عقلي يتصل بالعالم بأسره ، فإذا عزلناه عن العالم أسأنا فهمه ، وهو في مده وجزره أنما يفسر في ضوء أسباب مشتركة في " أوراسيا " كلها .

هذه وجهة نظر ذهب إليها بعض المعاصرين من الباحثين الغربيين ، ولكن جمهرة مؤرخي الفلسفة . من هؤلاء الغربيين . لا يرحبون بهذا الاتجاه في فهم الفلسفة وتصور معناها وتحديد

نشأتها ، لأنهم يضيقون مدلولها حتى يتعذر إطلاقه على حكمة الشرق القديم ، وبتقيد نشأته بفلسفة اليونان.

ثانياً : أساطير مغزاها ودورها وأسباب ظهورها

تطلق كلمة الأساطير على التراث الرمزي الذي انتقل عبر القرون الطويلة بواسطة اللوحات الطينية والرقم وما تركته الحضارات السابقة على جدران معابدها ورموزها الدينية والمدنية. وقد تم إزالة الغبار ودراسة هذه الأساطير وفك رموزها عن طريق البعثات الاستكشافية الأثرية الغربية التي وفدت إلى المنطقة بحثاً وبتقريباً عن تاريخ هذه المنطقة وتجميع قطع المعلومات التاريخية لتكوين صورة متكاملة عن مجتمع الإنسان في تلك الأزمنة السحيقة أو التحقق من صورة سابقة واستخدام المكتشفات لتثبيتها.

يعتبر بحث الأسطورة طريقة مغايرة لإعادة فتح وقراءة الآلاف بل الملايين من المدونات والرقم والجداريات التي تركتها الحضارات السابقة المتمركزة في المنطقة العربية. الجديد في هذه الطريقة والتي يكمن فيها سر قوتها هي أصالتها، بمعنى عدم فصل الأسطورة عن لغة ومعتقدات وثقافة أهل المنطقة للبحث يؤكد على ضرورة التعامل مع أساطير المنطقة كجزء لا يتجزأ من تاريخ هذه المنطقة بكل ما فيها من مظاهر ثقافية ابتداءً من اللغة التي لا بد وأن تكون عربية ولو بأحد لهجاتها التي توجد منها الآلاف إلى عادات البناء والإنشاء التقليدية إلى أساليب الزراعة والري وأخيراً وليس آخراً المضامين الفكرية للحكم والأمثال الشعبية والعقائد العابرة للأديان والأزمان.

الدراسة التاريخية المستوفية للفترات التي اتجه فيها علماء دراسة الآثار الغربيون، من شأنه أن يظهر بجلاء أثر الأفكار المسبقة عن تخليق المنطقة وتقسيم أقوام العالم إلى إثنيات وارجاع لغاته إلى مجموعة لغات وفي حالة من الربط العجيب بين نظريات علمية غير ثابتة أصلاً و إسقاطها على حقائق جغرافية وتاريخية وتفسيرات عقائدية والبحث عملاً يشابهها على الأرض لتحقيق السبق والإنجاز في منافسة محمومة بين القوى الاستعمارية وما يمثل تلك القوى من باحثين وأكاديميين وقساوسة وجامعي الكنوز والمغامرين وغيرهم.

التخلص من آثار تلك القراءة المبنية على إرث ظالم بل مثقل بالظلم والإجحاف بحق أهل المنطقة وتخليص الأساطير مما علق بها من تفسيرات محرّفة لحقائقها بجهل تارة وبسوء قصد تارة أخرى أصبح ضرورياً في وقت بدأت الأمة تنتفض لتعي نفسها والدور المناط بها على مر التاريخ و تستكشف ما حيك ضدها من مؤامرات طوال القرنين الماضيين أبان انحدارها عن سنام الحضارة الإنسانية وتفنن الآخرين في طمس الحقائق والإمعان في إبقاء الأمة رهن الذل والهوان. العمل الدؤوب لجلاء جوهر الحضارة الإنسانية الراقية المتصلة أبداً بالسماء بإزالة الغبار عملاً

تركه الأولون من أساطير وتفسيرها ضمن ثقافة الأمة التي أوجدتها سنكتشف الكثير من درر العقد الضائعة ليستكمل العقد متصلًا بالمبدأ من يوم نفخ في أبينا آدم الروح إلى يوم بعث الله نبيّه محمد (صلى الله عليه وآله) به عهد الرسالات والنبوّات ليستكمل الإنسان حضارته إلى الكمال انتهاءً بعروج الملائكة والروح في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما نعد وتعدون.

في هذا البحث لم يتم دراسة آلاف الأساطير وتحليلها، ولكن في المقابل تمّ التأسيس لآلية جديدة أكثر يسراً لأبناء الأمة في سبيل فهم الآلاف من أساطيرها وإعادة دراستها وتفسيرها ضمن أسسها الثقافية والمعرفية. كما أن البحث يفتح حقلاً جديداً للدراسة وزيادة البحث لإكمال التأسيس العلمي للمنهج الجديد وما يستتبع ذلك من ربط بين اللغات القديمة والمعاصرة خاصة اللهجات العامية المتفرقة على جميع أنحاء المنطقة العربية والشرق بشكل عام.

يعتني البحث بدراسة الأساطير القديمة، حيث يتناول في فصله الأول مقدّمة تعريفية عن الأساطير وعن نشأتها، والفرق بينها وبين الخرافات، وتعداد لأنواعها، ثم في الفصل الثاني يعالج علاقة الأسطورة بالتاريخ ويجب عن السؤال الأهم في البحث وهو: هل يمكن اعتبار الأسطورة مصدراً معتمداً من مصادر التاريخ ولماذا، ثم يتعرّف على الفصل نفسه إلى لفظ أساطير الأوّلين الوارد في القرآن الكريم ويمضي في محاولة للتعرف على سرّ ذكر هذا اللفظ في كتاب الله، وفي الفصل الثالث يطرح البحث آليات مقترحة لفهم الأساطير والتعرّف على أسرارها وفك أقالها، ثم يقدّم بعض المحاولات والاجتهادات لتفسير عدد من الأسماء المشهورة في الأساطير على اعتبار أنّ الأسماء تشكّل مفاتيح الولوج لتفسير الأساطير وبالأخص مع ارتباط الأسماء في الأساطير باللغة العربية ولهجاتها القديمة.

مفهوم الأسطورة ونشأتها وأنواعها

في بداية البحث لابد من تبين مفهوم الأسطورة إذ بدون هذا التبيان يظهر ألا جدوى من البحث نظراً للمفهوم المشوش والمشوّه لمعنى الأساطير في الذهنية العربية الإسلامية، خاصة وأن المفهوم ظلّ غائباً منذ أن هيمنت الثقافة الإسلامية على جميع مناحي الفكر في المنطقة. قد يكون لهذا الغياب أسبابه المنطقية خاصة مع بداية انطلاقة الإسلام كنهج تغييرى لكل التأسيسات الاجتماعية سواءً في الفكر أو العلاقات وتنظيمها على أسس توحيدية، وسبك المعارف الفكرية والحياتية في قالب لغوي راقٍ يستغني فيه المسلمون عن أخذ المعرفة من غيرهم أو ممن سبقهم خاصة ولم يبق شيء سماوي إلا واختلط بالأرضي حذفاً وإضافةً وفهماً. يقول المؤرخ الفرنسي "بيير روسي" في هذا الشأن في كتابه "التاريخ الحقيقي للعرب": إذا كان مؤرّخونا المسلمون الأوائل قد أخذوا نظرهم إلى التاريخ بذلك القصور المبستر فقد كانت لهم أسبابهم ومبرراتهم الكافية، فهم من جهة كانوا يعملون على تكريس التوحيد الإسلامي فكان لزاماً